

في المنتصف.. عالقون

الإهداء:

إلى الغارقين في الأسئلة، والنادمين عما مضى
امضوا من محطة المنتصف فالعمر يمضي دون هوادة

الكاتبة: ربوع محمد جابر

_ماما، ماما

_نعم يا جود، ماذا تريد؟

_ أرجوكِ حققي أمنيّتي (يتصنع البكاء)

_ لا يا صغيري، لن تحصل على جهاز لوحي الآن.

_ جميع أصدقائي يمتلكون واحداً منها، لماذا ترفضين؟ (يشد قبضتيه باكياً)

_ جود صغيري، لا تبلغ من العمر سوى سبع سنوات هناك الكثير من الألعاب والأشياء التي تستطيع الاستمتاع بها عوضاً عن تضييع وقتك وصحتك مع هذا الجهاز. (جاثيةً على ركبتني لأصبح بمستواه و أنا أمسد شعره الحالك الأجد)

_ ألعابك هذه أصبحت قديمة ومملة يا ماما، أرجوكِ وافقي.

_ لا يا جود لا. (تركته ومضيت نحو المطبخ)

_ إنها مأساة أن تكون أُمي كاتبة.

رمى سهام كلماته هذه في قلبي وصعد الدرج نحو غرفته، أصابت جملته جبال أحاسيس جمدها في القطب البعيد من ذاكرتي لكيلا تخزني بحدتها، قساوة الشعور بأنني أمتطي صهوة أحلامي وأركض بها، بينما يركب

الآخرون سيارات فارهة تسير إثر احتراق وقود مبادئهم، وأني متأخرة عن المسير دوماً بالأحرى لا أنتمي لأي مسير، بل أمشي وحيدة حتى طليقي لم يستطع مشاركتي الطريق عندما كنا معاً، تركني مع جود ابن الأربع شهور و هجرني، وبدوري هجرتُ وليدة قلمي روايتي الأولى لأعتني بطفلي، هنا بدأت مرحلة أصعب أنا وحيدة لكن مع طفل في أمس الحاجة لي، أخذ يكبرُ جود أمام عيني، يكتسبُ ملامح والده بالشعر الأسود الأجدد، العينين الواسعتين الزرقاوين، والبشرة السمراء قليلاً، لم يرث مني سوى غمازتيه، قبالات الملائكة هكذا أسميتها.

اليوم يلعب جود بين شهور عامه السابع، و يلعب أعصابي بمهارة عندما يطلب مني شيئاً ويرفقه بالدموع، تلك الأخيرة تحرق نبضي وتشد أعصابي ليعزف عليها سيمفونيته الجديدة التي لم يمل منها بعد، إن هذه التكنولوجيا الحقيرة تخدر عقولهم تماماً، تجعلهم أسرى لهذه المساحة الصغيرة من الألوان والألعاب ولا يستطيعون النظر والتفكير أبعد منها، لقد أعددتُ له غرفةً كبيرةً فيها الكثير من الألعاب التي تنشط مداركه في هذا العمر، أضفت لها آلات موسيقية مصغرة و مرصماً صغيراً مع شتى أنواع الألوان، مكبر صوت صغير، واخترعتُ له ألعاباً جميلة لكنه عبثاً لا يرضى بأي منها، ويتحرق شوقاً لتجربة ذلك العالم الافتراضي الممسوخ. قاطع حديثي مع ذاتي عدة طرقاتٍ على الباب، توجهتُ نحوه وأنا أنفضُ عني طيف خيالي الواسع لأعود للواقع، فتحتُ الباب إنها توأمي يا لها من مفاجأة، عانقتني قائلة:

مرحبا كاتبتنا الجميلة ليلى

أهلاً إيميليا، تفضلي (عانقتها بدوري)

دخلنا و ليلى تجر خلفها حقيبة، لا بد أنها تنوي الإقامة عندي بضع أيام.

ليلى هي النسخة العصرية مني، بالأفكار واللباس ونمط الحياة، عكسي تماماً أنا الفتاة الكلاسيكية التي ترفض مجازاة أحدٍ سواها.

ومجرد ما وطأت قدمينا بهو المنزل المؤدي لغرفة الضيوف كان جود قد هبط من غرفته ليستقبل خالته، أكثر الأشخاص دلالاً له، حملته بين يديها وقبلت وجنتيه الممتلئتين وعانفته بحميمية، كأنه ابن قلبها، هذا ما يشفع لها

عندي دلالتها له وهو عودتها لطبعها الحنون مع جود عكس ما تظهره مع محيطها من قسوة و لامبالاة.

دخلنا لغرفة الاستقبال التي لم تتغير منذ زيارتها لي السنة الماضية، ثلاث أرائك بنفسجية بلون اللافندر تتخللها نقوش فضية على الحواف و مكتب من خشب الأبنوس يستقر قرب النافذة، بلونه الأبيض الناصع، تستقر فوقه أكواب من ورق أبيض و دفتر بنفجسي عتيقٍ بالإضافة لحاسوبي الصغير الذي اقتنيت حديثاً، وضوء مكنتي له شكل وردة التوليب، يجاور علبة تحوي أقلامي منها الفارغ ومنها الجديد، اعتدت الاحتفاظ بأقلامي حتى لو جف حبرها، استقرت شقيقتي و جود في حضنها، تلعب بشعره وتحديثه، جلستُ قبالتها أتأملها، مكياجها الصارخ، شعرها المصقّف بعناية بشكلٍ متموج يكاد يلامسُ خصرها المنحوت كإحدى التماثيل الرومانية، فهي لا تفوت تمريناً واحداً في النادي، تخاف أن يزداد وزنها بشكلٍ مرضي.

وجّهتُ حديثي إلى جود: اذهب للعب في غرفتك، خالتك متعبة من سفرها.

_ خالتي هل أنت متعبة حقاً؟

_ نعم يا صغيري، سنلعب مساءً سويةً هيا اذهب الآن.

_ حسناً يا خالتي. (قبّل وجنتيها و صعد إلى غرفته)

_ كيف حالك يا ليليا؟

_ لستُ على ما يرام يا أختي.

_ أتشاجرتي مع والداي مجدداً؟

_ أجل، كالعادة يريدون إسقاط أفكارهم وتحقيق أحلامهم في حياتي أنا.

_ وأنت لا تريدين العيش كما يريدون، لكِ أحلامك ورغباتك اللاتي لا يحترمونها، كفى يا ليلي لقد حفظتُ هذا السيناريو عن ظهر قلب.

_ ماذا أفعل؟ ساعديني أنا ضائعة يا إيميليا.

جلست بجانبها وعانقتها وأنا أطبب عليها: اهدئي يا حبيبتي، اصعدي الآن لغرفتك لاتزال كما هي، ارتاحي وسنتحدث في المساء.

رفعت رأسها ومسحت دموعها: شكراً لوجودك في حياتي.
وضعت يدي على فمها: اسكتي، أنتِ نصفِي الآخرِ قلبي وبيتي مفتوحان
لكِ دوماً أيتها الشقية.

حملتُ حقيبتها وأوصلتها لغرفتها، فقد اعتدت شقاوتها ومشاحانتها مع
والديّ، بقدرِ ما أنا مسالمة هي متمرّدة و مشاغبة.
مررتُ على غرفة جود، كان يرسم ابتسمة فرحةً به وقلت لنفسي لعلّه
أقلع عن فكرة اقتناء جهاز لوجي، طرقت الباب بهدوء ودخلتُ.

_ ماذا يرسم بطلي الصغير؟

_ لا شيء (ترك ريشته واتّجه نحو فراشه)

_ جود ما الخطب؟

_ لا شيء يا أمي دعيني وشأني، أريد أن أنام.

لم أعرف ماذا أردتُ اتّجهت نحو المرسم، لقد رسم نفسه وبيده جهاز لوجي
تخرج من الشاشة سحبٌ تحملُ ألعاباً و شخصياتٍ كرتونية، و إحدى
السحب تحمل رسائلَ كتبتُ عليها بخط صغير أربع حروفٍ: بابا
أدركتُ الآن لماذا يصرُّ على اقتنائه، يريد البحث عن والده، لكن لماذا لم
يخبرني؟

خرجتُ من غرفته وتوجهتُ لمكتبي، فتحت درجاً وأخرجتُ جهازاً لوجياً
قديمًا بعض الشيء، ابتعته منذ عامين في محاولةٍ مني لمجاراة كتّاب
العصر، بنشر ما أكتب عبر وسائل التواصل الاجتماعي لكن لم تسعدني
كل تلك التّغريدات عبر التّويتتر أو التّعليقات عبر الفضاء الأزرق، لم
أستطع الكتابة إلا على الورق ورؤيته يتناول الحبر بنهم.

مسحته بباطن كفي ولففته بشريطة خضراء مع بطاقة صغيرة كتبتُ عليها
(أحبك يا صغيري، مبارك)

صعدتُ وقلبي يحاول أن يثنيني عن إهدائه إياه لكن عقلي يقنعني بأنني
سأتفق معه على ساعات لعب محددة، وسأتفقد الألعاب التي يريدّها،
وسأخصص له وقتاً لتقوية لغته العربية والإنجليزية، والأهمُّ أن أفهم ما

يدور في ذهنه حول أباه، طرقتُ الباب بهدوء وأنا أقول له: لديّ مفاجأة لك يا جود.

دخلتُ وانتبهتُ لعينيهِ تسترق النظر لي من زاوية الفراش، واتّسع بؤبؤيهما أغرق قلبي بجمالهما، جلستُ إلى جواره: أعرف أنك لم تنم بل كنت تخاصمني، هذا الجهاز لك لكن سيكون هناك اتفاق بيننا ليكون كلانا سعيد.

_ موافق يا ماما (وطوق رقبتني بيديه الصغيرتين)

أخبرته بشروطي وأبدي موافقته وجديته الكاملة، وعندما حاولت تعليمه التّعامل معه، فاجأني بأنه يعرف و يفوقني معرفة، قبّلتَه و تركته يعيش سعادته الصغيرة وحده، وتوجهت لغرفة ليليا، تفقدتها ودثرتها جيداً، بدأ أكتوبر يرخي أجواءه الباردة، ذهبْتُ للمطبخ سأعدُّ شوربة عدس لذيذة ودافئة في هذا الجو، وفي المساء التفتنا حول المدفأة، وضعتُ بضع حبات الكستناء فيها، كنت سعيدة حقاً لكن قلبي لا يفتأ ينبئني بخطر قادم.

_ ماما، أنتِ حقاً مبدعة.

_ شكراً حبيبي، لكن ما المناسبة؟

_ قرأت بعض نصوصك هنا (مشيراً للجهاز)

_ لقد نسيت أنني كتبت شيئاً وحفظته فيه.

_ بلى انظري، لكنك لم تكلمي ولو نصاً واحداً منهم.

_ أرني يا جود(امتقع وجهي و سالت قطرات من العرق البارد)

_ ليس قبل أن تخبريني بنهايات القصص، ماذا حلّ بأيلول؟ وعاصي وراحيل ماذا حدث لهما؟ و هل وجدت نيسان حلاً لذاكرتها القوية؟

_ كفى يا بني، إنها نصوص ملعونة هي التي منعتني من إكمالها.

_ نظرا لي و غرقا في نوبة ضحك، نطقا معاً: نصوص ملعونة!!!

_ كفى ضحكاً، إنها حقاً كذلك فشخصياتها تمردت عليّ في المنتصف و

رفضت المتابعة كما أريد بل كما تريد هي، وهددّتنني...

_ لا بدّ أنّك تمزحين إيميليا، أتهدّد الشخصيات كاتبها؟

_ نعم نعم، صدّقوني.

_ ماما ما تهديها؟

_ ستسلبني أغلى ما أملك مثلما سلبتها حرّيتها، و أريدها أن تتصاع لي.

_ أيلول، شمس، عاصي، راحيل

كان جود يردد أسماء أبطال قصصي ويقلب بين النصوص وفجأة ومع إحدى لمساته أشعت الشاشة بضوء ساطع أحاطت بجود و أخذته معها.

امتقع وجهيهما ولم يصدقا ما حدث أمام عينيهما، أمسكت إيميليا الجهاز وأخذت قلبه بين يديها، وتصرخ:

_ تبا لك أيها الجهاز الملعون، ماذا فعلت بطفلي؟ (وانهمرت دموعها)

_ اهدي يا أختي. (احتضنتها و أخذت الجهاز منها)

بقينا على هذه الحالة حتى غفّت إيميليا في حضن أختها، فتحت ليليا الجهاز ووجدت أن جود قد جمع كل النصوص الملعونة بنسخها ولصقها معاً و أخذت الحروف تتعاقب فتكون كلمات تصطف بأناقة في جمل غريبة، و أخذت تقرأ:

أيلول تقترب من ابني تمسد شعره وتقول: شعره أجعد مثلي

وعاصي يلمس وجنتيه بحب: و أسمر مثلي.

شمس: عينيهِ بحرّيتان مثلي.

راحيل: غمازتيه تشابه هاتين (تشير لغمازتيها مبتسمة)

نطقوا معاً: يشبهنا جميعاً.

غادرت جود الدهشة و نطق أخيراً: من أنتم أشعر أنني أعرفكم، أين أنا؟

ردوا تباعاً معرفين عن أنفسهم، كنتُ أرى المشهد من بعيد وأخذتُ أقترُب منهم، محاولةً إنقاذ ابني والعودة معاً لبيتنا، وقفْتُ أمامهم لكن نظراتهم كانت تعبرني وكأنني لا شيء صرخت: أنا هنا، انظروا لي جيداً.

عبثاً لا أحد يرد، فجأة التفت جود نحوي : ماما أشعر بك، نبضك قريب مني لكن لا أراك.

_عبرتُ شمس باتجاه جود ولمست يده فارتعش جسده، ارتجفت شفتاي: لا زلتَ تشعر بي يا صغيري.

فرّت من عيني دمعاً تحوّلت دموعاً مطرية انهمرت فوق جود البقية، فأخذوه بعيداً إلى كوخ أيلول، وهناك تحلّقوا في دائرة ودار حديثٌ بينهم:

جود: ماذا تريدون مني؟

عاصي: نريدُ مساعدتكِ.

جود: بماذا أساعدكم؟

رحيل: نريد نهاياتٍ لقصصنا، والدتكِ تركتنا في المنتصف لا نستطيع العودة البداية و لا طريق أماننا لنكملهُ.

جود: أنا عالق أيضاً، لكن بين يدي الماضي وليس المستقبل.

شمس: أفقدت أحدهم وعلقت مع ذكرياته مثلي؟

جود: لم أفقده، لقد هجرني بإرادته رفضني قبل أن تقبل بنا الأيام معاً لنصنع الذكريات، تركني و أمي وحيدين.

عاصي: أمك أيضاً عالقةٌ في دوامة مثلنا؟

جود: نعم، ربما لهذا لم تستطع إنهاء قصة أحدٍ منكم، لأن قصتها نفسها ناقصة.

(عودة للواقع)

قاطع إيميليا عن القراءة هدير الرعد الذي فتح كل النوافذ معاً وتبعه برقٌ أضاء المنزل، ففزعت ليليا وانتفضت من غفوتها وهي تلهج باسم جود.

_اهدئي ليليا.

_أين جود؟

_إنّه هنا (أشارت للجهاز اللوحي، الذي توقفت حروفه عن الاصطفاف فجأة)

أخذت ليليا الجهاز منها و أخذت تقرأ، وعندما وصلت الجملة الأخيرة انهمرت دموعها و همست شفتاها المرتجفتان: جود عد لي أرجوك.

أخذت أختها الجهاز منها وقالت: لن تستطيعي إعادته إن لم تنته كل هذه القصص، و تنهي قصتك أيضاً وتخبريه الحقيقة.

ارتعش جسدها وأخذت تهذي: الحقيقة؟ عن أي حقيقة أخبره يا أختي؟
احتضنت إيميليا الجهاز بين يديها و أخذت تبتعد عن ليليا وصوتها يتحولُ
لصدى: أخبريه وأخبري نفسك حقيقة أننا متنا جميعاً، و تتوهمين وجودنا.
أخذت ليليا تصرخ: لا لا لم تموتوا، أنتم هنا أختي أرجوكِ عودي، لا
تذهبي.

وفي هذه اللحظة وصلت صرختها إلى الأجهزة المحيطة بها، و أطلقت
صافرة مع وميض أخضر رآته ليليا مشوشاً وهي تفتح عيناها بعد غفوةٍ
طويلة، سرت في جسدها قشعريرة غريبة فالمكان بارد جداً، همست
بوهن: أين أنا؟

جاءها صوتٌ رجوليّ من إحدى الجهات: أنتِ بأمانٍ يا أمي.

سالت دمعة من عينيها: جود، أنت بخير؟

قبّل يدها وتابع: نعم يا أمي كلنا بخير وبانتظار عودتكِ، لقد طالت غفوتك،
أم أقولُ غيبوبتكِ؟

راودها شريط ذكريات ضبابي بعض الشيء قبل أن تسأله: منذ متى وأنا
هنا؟ ماذا حدث؟

مسح دموعها بكفه الذي كبر كما كبر هو و أجابها: منذ خمس سنوات، و
أنتِ في غيبوبة، ارتاحي الآن وسأخبركِ ماذا حدث لاحقاً.

وبعد عدّة أيام تحرّرت إيميليا من بعض الأجهزة، و تحسنت صحتها قليلاً،
أما عمّا حدث فسيخبركم جود وهو يسرد الأحداث لوالدته:

منذ خمس سنوات، وبعد شجارنا من أجل الجهاز اللوحي أخبرتكِ بحقيقة
رغبتني بأنني أريد البحث عن والدي ومراسلته، لكنكِ رفضتي بشدّة
وعاقبتني بكلامٍ قاسٍ جعلني أغضب و أخرجُ من المنزل وأنا أبكي و
أطالبكِ بإخباري أين أبي، لحقتني وأنتِ في أشد غضبك لم تنتبهي وأنتِ
تقطعين الشارع فصدمتكِ سيارة وهربت، أتيتُ نحوك من الجانب المقابل
من الشارع بعدما سمعت صوت ارتطام جسديك بالأرض، وجددتني غارقاً

معك في دمايك، توقف بي الزمان هناك، في تلك اللحظة التي غفوت فيها وخفت أن تكون غفوتك أبدية، نُقلت أنت إلى المشفى ودخلت في غيبوبة، بينما تكفّلت بتربيتي خالتي إيميليا، لطالما واساني الشبه بينكما وخفف وطأة مصابي، تابعت علاجي النفسي و تعليمي كل هذا الوقت، أغلقت منزلنا منذ ذلك اليوم ومنعتني من العودة إليه، كنت آتي إليك كل أسبوع أراك من خلف الزجاج فقط، ومنذ أسبوع في عيد ميلادي الثاني عشر طلبت منها أن تكون هديتي زيارةً أخيرة للمنزل قبل بيعه لأن بقائك هنا بات يكلفها الكثير وقد فقدت معظم أموالها، وبالفعل ذهبنا لمنزلنا وجدتك في كل زواياه، بجانب المدفأة تشوين الكستناء، وراء مكتبك تكتبين رواياتك، جلست على كرسيك وأخذت أفتح الجوارير وأقلب الأوراق أود معرفتك أكثر، اشتقت لك كثيراً و شعور الندم كان يأكلني حتى وقعت يدي على جهاز لوحي قديم بعض الشيء، لم تستعص عليّ مهمة فتحه لأن تاريخ ميلادي كان كلمة السر لكل شيء في حياتك، أخذت أقرأ نصوصك

جميعها تقف عندما تتعقد الأمور، كما توقفت حياتي وساعتي وبوصلتي عندما تعقدت الأمور وغبت عن الوعي كل هذه المدة، وخلال هذه الأسبوع تناقشت مع الأطباء مطولاً وقرأت مقالات عن حالتك، وتأكدت أنك ستسمعينا إذا حدثناك، طلبت من خالتي أن نحاول مرةً أخيرة قبل أن نبيع المنزل، لم أفقد الأمل في عودتك لي و لحياتنا السابقة.

بالفعل اتفقنا على التناوب على محادثتك مستغلاً التشابه في الصوت بينكما، كنت تتجاوبين بوهن شديد، وبما أنك كنت دوماً تستبسلين في الدفاع عني وعن خالتي قررنا أن نصدمك ونخبرك بأننا متنا، بالفعل كنت تسمعينا ولم تحتلمي فكرة فقدنا فانتفضت حقاً، وها أنت بيننا.

ختم جود كلامه و ليليا تبكي بفرح وألم معاً، فرحةً بعودتها وبذكاء ابنها، ومتألماً لما عاناه في غيابها، سألته بخوف وهو يحتضنها: أما زلت تريد معرفة شيئاً عن والدك؟

أحست بنبضه تسرع: راسلته منذ عام في محاولة مني ليأتي ويساعدني، لكنه أخبرني بأنه مشغول بحياته وعائلته الجديدة ولن يعود.

رفعت رأسها و واجهته : لطالما حاولت حمايتك من قسوته لذلك أقصيتك عن الحديث و التواصل معه، إنه هكذا...

قاطعها : أمي لا أريد الحديث عنه، سامحته حقاً، سامحيني أنتِ لنعود
لحياتنا من جديد.

احتضنت وجهه بين يديها: لم أحملُ لكِ إلا الحب يا صغيري، لا ذنب لكِ
بما حدث.

لنتركهما معاً في هذه الصورة الجميلة التي التقطتها إيميليا لهما، و علقتها
على جدار الذكريات في منزلهما البنفسجي الجميل، الذي عادوا إليه جميعاً
و استقروا فيه، أكملت ليليا قصصها و أصدرت مجموعة قصصية لاقت
نجاحاً مبهراً، وجود تابع دراسته وهو الآن على أبواب التخرج من كلية
الإعلام ويجهز لمعرضه الأول أما إيميليا فكانت مديرة أعمالهما بحنكتهما
وذكائهما.

تمت و...

_ انتظري، انتظري كاتبتنا الجميلة (قاطعتي ليليا)

_ انتهت القصة ليليا ماذا تريدان؟

_ أريد أن أقول كلمة أخيرة للقراء.

_ تفضلي

_ أحسنوا اختيار الشريك ولا تتابعوا في علاقة سامة لكم، لقد تابعتُ في
علاقتي السامة معه وأنجبتُ طفلاً على أمل أن تتوحد علاقتنا بسبب ابننا
من فرط حبي له، لكنه هجرني وابني بحجة أنني لم أعد أناسبه، وحصدت
نتيجة خطأي عمراً محفوفاً بالألم والخطر، لم يستقر إلا مؤخراً.

_ شكراً ليليا على نصيحتك.

تمت والحمد لله

١٧ _ ١٠ _ ٢٠٢١

٦:٠٨ مساءً

حماء

